المَوْت

بوابة الخلود

د.مأمون فريز جرار

الطبعة الاولى
١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠١٠/١/٣٧٥)

٢٤٤,٦
جرار، مأمون فريز
الموت بوابة الخلود /مأمون فريز جرار._ عمان: دار المأمون للنشر والتوزيع،٢٠١٠.
(١٠٠) ص
ر.أ.: (٢٠١٠ / ١ / ٣٧٥).
الواصفات: الموت//الإسلام// الإيمان/

- أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية
- يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى

دار المأمون للنشر والتوزيع
العبدلي - عمارة جوهرة القدس
تلفاكس: ٤٦٤٥٧٥٧
ص.ب: ٩٢٧٨٠٢ عمان ١١١٩٠ الأردن
E-mail: daralmamoun@maktoob.com



الإهداء

إلى كل من غيب الموت عزيزا عليه.

إلى من ملأ الحزن قلبه لموت غال.

إلى من تحجب أستار الغيب عنه ما وراء الموت.

إلى من يبحث عن برد اليقين الذي يورثه الطمأنينة.

أقدم هذه الرسالة.

عسى أن تكون بلسما للقلوب المكلومة.

ونورا في ظلمات الوهم المسيطر على العقول.

وكاشفا لحجاب الوحشة.

مامون فريز جرار

الموت بوابة الخلود

الموت حقيقة الحقائق في أرضنا، وهو قسيم الحياة، ففي كل لحظة موت وحياة:

في الجسد الواحد خلايا تموت وخلايا تتجدد.

وفي كل لحظة يغادر الحياة أناس ويهلُّ على الأرض أناس .

في المستشفى الواحد غرفة للمواليد وثلاجة للموتى.

الموت هو الحقيقة الحاضرة الغائبة التي تأتي في كل لحظة وكأنها تأتي أول مرة، ونتخلص من حضورها سريعا، وكأننا بتجاهلها نحاول وأدها، وهي لا تلتفت إلى تجاهلنا بل تأتي في كل لحظة لتزور مكانا ما أو أكثر في الأرض، وتمضي بحمولتها مرة إثر مرة لا تعبأ بمن يرضى بها أو يسخط عليها ومن يحبها أو يكرهها.

نودع موتانا في المقابر ونحن نتحدث عن دنيانا، نحاول أن نبعد عن أنفسنا فكرة أننا سنموت.

ونقيم مجالس العزاء التي يغلب أن يحضر فيها كل شيء إلا ذكر الموت الذي نحاول أن نلقي عليه أستارا من التقاليد الاجتماعية والعادات التي تحوّل مجلس الموت إلى مجلس تباه بمن حضر وعدد من حضر، وبما يرافق ذلك من تقاليد الطعام والشراب بل بختام أيام العزاء بالحلوى التي نحاول أن ننسى بها مرارة الموت .

وتتردد على ألسنة بعضنا جملة يكررها بغفلة وهو يعزي أهل الميت قائلا: خاتمة الأحزان **!!**

وهل للأحزان في هذه الدنيا خاتمة ؟

ومن الناس من يقول : البقية في حياتك **!!**

وهل ترك الميت بقية من عمره لغيره؟

إنه لم يمت حتى استوفى رزقه وأجله.

نتجاهل الموت؛ وهو حقيقة الحقائق التي لا يجادل فيها مؤمن ولا كافر.

يستوي في ذلك من يرى أن بعد الموت بعثاً وحساباً وحياة جديدة يلقى فيها جزاء ما قدم من خير أو شر،

ومن يراه خاتمة المطاف ونهاية مسرحية لم يعرف كاتبها ولا مخرجها ولم يدر لماذا جاء

ولماذا غادر.

جاء لا يعرف من أين وسيمضي إلى مجهول يسعى إلى أن يكون عدما ليؤمِّن لنفسه راحة العدم؛ لأنه لم يعد نفسه لوجود جديد ولم يحسب حسابه.

كثيرا ما نتجاهل الموت لأننا لم نفرغ بعد من أمور دنيانا ولم نرتب أوراقنا لنقول إننا جاهزون للرحيل.

لم نجهز حقائب سفرنا ولم ننتبه إلى أن مقعد رحيلنا عن دنيانا محجوز لنا منذ تخلقنا أجنة في أرحام أمهاتنا.

ولم نتنبه إلى أننا في هذه الدنيا أشبه ما نكون بالركاب في صالة انتظار في المطار أولئك الذين يسمح لهم بالتجوال في المنطقة الحرة بكل إغراءاتها وتبرجها وإعفاء ما فيها من الرسوم الجمركية.

بعضنا أو لنقل إن كثيرا منا نسي أنه في صالة الانتظار، وأن جولته في السوق الحرة عارضة مؤقتة، وأن عليه حين ينادى عليه بالتوجه إلى بوابة كذا أن يستجيب.

بل عليه ألا ينسى أنه في صالة انتظار.

وأنه ليس في دار قرار.
وأنـه وهو فـي هذه الصـالة كـان تحـت رقابـة صارمة تسجل بالصوت والصورة كل حركاته،
وأنه عند الخروج من البوابة سيُسأل عما فعل وسيتم تفتيش ما معه من البضاعة،
وأنه سيستخرج منه ما أخفى مما مدَّ إليه يده حين نظر يمينا ونظر شمالا وظن أن لم يره أحد، وأخفى ما أعجبه في جيبه حينا، أو دسَّه في حقيبته حيناً، من غير أن يدفع ثمنه.
كل ذلك سيستخرج منه ويسأل عنه ولن ينفعه أن يقول: أنا لم آخذ هذه الأشياء بل تسللت إلى جيبي أو اندست في حقيبتي**!!!**
لن ينفعه ذلك ولن يستطيع الإنكار حين يوضع أمامه شريط مسجل يرى نفسه فيه منذ لحظة الدخول حتى بوابة الخروج، ويقال له: لن نقول لك شيئا بل سندعك أنت تحكم على نفسك.
قد لا يكون الحديث عن الموت أمرا شهيا، ولكن هل نملك إلا أن نتحدث عنه؟
وهل يجدينا شيئا تجاهله وهو لا يتجاهلنا، بل يخطف منا من انتهى أجله، وسيأتينا الدور شئنا أم أبينا، أحببنا أم كرهنا؟
أليس الأجدى لنا أن نفهم هذه الظاهرة القاهرة، الغائبة الحاضرة التي تملأ العيون دمعاً،

والحلوق غصصاً، والصدور حزناً ؟

لماذا لا نسعى إلى فهم الموت فهما إيجابيا يجعل لحياتنا معنى ويملؤها بكل نافع، ويضمن لنا طمأنينة القلب في الدنيا وحسن المنقلب بعد الرحيل عنها، فيتحول الموت من ظاهرة تثير التشاؤم إلى ظاهرة تضبط مسار الحياة.

ظاهرة لا تقول: كل وتمتع فإنك ستموت،
أو أعرض عن كل شيء ما دمت ستموت.
بل تقول: استقم في حياتك لأنك ستموت،
عمّر الأرض بالخير لأنك ستموت.

أوهام حول الموت

يرتبط الموت لدى كثير من الناس بظاهر ما يحدث لجسد الإنسان وغياب ما وراء ذلك،

ذلك أن المشاهد المحسوس المقطوع به هو ما نعرفه عن الإنسان الذي مات من أنه يتغير:

فالجسم يفقد الحياة والحركة والتفاعل والقدرة، كل ذلك يزول ويسلب منه،

ويتحول إلى جثمان، أي إلى جسد هامد يجثم مكانه ولا يتحرك بنفسه.

ثم ما يتبع جثوم الجسد من مسارعة إلى دفنه في القبر، وما يرتبط به الدفن من تحلل الجسد وتلاشيه.

فهل الموت هذا فحسب ؟

هل الموت تلاش وفناء وانتهاء لمن كان ملء السمع والبصر والقلب؟

كثيرا ما يتوقف العقل البشري عند هذا المشهد ولا يتابع ما وراءه، إما عجزا عن الإدراك أو تقصيرا في استحضار المشهد الخفي الذي جاءتنا عنه نصوص صحيحة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

نصوص تجعلنا نرى ما لا تراه العين من حقيقة الموت، وما يكون مع الميت بعد انفصال الروح عن الجسد وانطلاقها إلى أفق لا ندركه بالعين المجردة ولا نسمع ما يجري فيه بآذاننا.

وقبل الوقوف على ما وراء المشهد المنظور من أحوال الموت والميت، لنقف على أمر لا بد من استحضاره،

أمر مرتبط بالأرض التي نعيش فيها ومتطلبات الوجود فيها.

الله تعالى حين خلق آدم جعله بشرا من طين الأرض، ونفخ فيه من روحه،

فالإنسان: جسد طيني أرضي

ونفخة ربانية،

هذه النفخة تجلّى وجودها وأثرها وصفاتها من خلال هذا الجسد الطيني الأصل،

ويبدو أن من أراد الظهور في عالم الشهادة الأرضي لا بدّ له من جسد، شأنه في ذلك من باب التقريب شأن من يلبس البدلة الفضائية من رواد الفضاء الذين يخرجون خارج الجاذبية الأرضية، وبغير هذه البدلة لا يستطيعون الاستمرار في الحياة.

فهذا الجسد هو بدلة الفضاء للنفخة الربانية التي صار بها الإنسان إنسانا، وكائنا مكرما، له من القدرات ما ليس لغيره من الأحياء التي تشاركه هذه الأرض.

ولعل مما يزيد الأمر وضوحا أن الملائكة حين يدخلون عالم الشهادة في الأرض يلبسون جسدا أرضيا يمكن إدراكه بالمشاهدة والتعامل معه،

ولذلك حين طلب المشركون أن يكون الرسول ملكا قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٩].

ويدل على ذلك ما كان من أمر جبريل عليه السلام حين جاء مريم وقال القرآن الكريم عنه: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧].

وكذلك حاله في الحديث المشهور الذي رواه مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين جاء النبي ﷺ وسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان والساعة وأماراتها، فقد ظهر في صورة شخص شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر حتى خفي أمره على الصحابة، وورد أنه كان يظهر في صورة

دحية الكلبي رضي الله عنه.

أخلص من هذا إلى أن النظر إلى الموت من خلال الجسد الفاني المتحلل في القبر، وغياب الجزء الآخر من الصورة عن أذهاننا، صورة ما يكون من أمر الميت في عالم الغيب بعد أن اختفت صورته من عالم الشهادة، ذلك النظر يؤدي إلى قصور في تصور الموت.

الموت ليس فناء بل هو انتقال إلى مرحلة جديدة في مسيرة الإنسان من لحظة خلقه في عالم الغيب: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

إلى لحظة توجه الناس زمرا: المؤمنون إلى الجنة والكافرون إلى النار،

ويمر الإنسان ما بين اللحظتين بمراحل يعي بعضها ومراحل لا يعيها.

فمن منا يذكر مرحلة الرحم والولادة ومرحلة ما قبل الوعي والتذكر ؟

معنى هذا أن إدراكنا لحقائق الوجود محصور بوسائل الإدراك من سمع و بصر وحواس

أخرى وفؤاد أو قلب أو عقل، ووراء ما ندرك عوالم وحقائق لا يعلمها إلا الله ، قد نطلع عليها في رحلة وجودنا.

أوهام حول الحياة والإنسان

يـرتبط الحـديث عـن المـوت بالحـديث عـن تصورنا للحياة وتصورنا عن الإنسان ووظيفته في الوجود وسر خلقه.

واسمحوا لي أن أستعير جملة كنت أسمعها من إحدى جداتي تلخص موقف كثير من الذين يتحدثون عن الموت من حيث يريدون أو لا يريدون هذه الجملة هي: (خلقنا وعلقنا)

فهل نحن فعلا علقنا في كوننا مخلوقين وهل الحياة ورطة؟

سؤال قد يبدو عجيبا ولكن إن نحن تدبرنا في حديث كثير من الوعاظ والدعاة عن الحياة والإنسان والموت وجدناها كذلك، وحاشا لله أن تكون كذلك.

وهي نظرة بدأت في وقت مبكر من عهد التابعين الذين انعزل بعضهم عن الحياة وعطل ما أودع الله تعالى فيه من القدرات، ولو أن المجتمع سار على منهج هذا النفر لتعطلت الحياة ولخفي سر الخلق، ومن شاء فليرجع إلى كتاب

صفة الصفوة لابن الجوزي، ولينظر شواهد كثيرة لما أقول. [ولعلي أنشر قريبا دراسة أعددتها حول هذه الظاهرة بعنوان: الزهد في الإسلام (قراءة في كتاب صفة الصفوة)].

إن منهج: لدوا للموت وابنوا للخراب.

ومنهج: نح على نفسك يا مغرور إن كنت تنوح.

ومنهج الترهيب المعطل للحياة.

هذا المنهج هو الذي نجده في بعض المواعظ والدروس (التمثيلية) نعم أقول: (التمثيلية) التي يتحول فيها الواعظ إلى ممثل تراجيدي،

في طريقة عرضه لفكرة الحياة والموت،

وفي تركيزه على جانب من الحياة،

ويغدو مثل هذا الوعظ كابوسا لا يستطيع سامعه أن ينام دون أن تصيبه الكوابيس.

في هذا الأسلوب من الوعظ إغفال أمر مهم هو أن الله تعالى قد جعل الإنسان مظهر أسمائه الحسنى في أبهى صورها وأجلاها.

وأن هذا الإنسان بالنفخة الربانية المكرمة له صار كائنا فاعلا في الوجود لا منفعلا متأثرا فحسب،

وأن الله سبحانه قد سخّر ما في السماوات وما في الأرض لخدمته ولتوفير متطلبات الحياة له في هذه الأرض، لتتجلى على يديه وبما يكون منه آيات الله تعالى،

وليدرك من هذه الآيات ما ينكشف له في عصره، وفي النظر في توالي العصور ومنجزات الإنسان حيث ندرك عظمة الخالق وحكمته ورحمته.

أقول: إن هذا المنهج الذي قد كان من قبل نتيجة فهم جزئي للدين والحياة وخلق الإنسان،

وكان ردة فعل أحيانا على انجراف المجتمع نحو الدنيوية التي تتغلب فيها الغفلة على القلوب، والرضا بالحياة الدنيا والاطمئنان إليها؛ مما يؤدي إلى الميل نحو الجهة الأخرى في ما عرف بظاهرة الزهد التي يتخلى الإنسان فيها عن الدنيا ومظاهرها، وامتدت هذه الظاهرة عبر التاريخ فتجلت أحيانا في التصوف السلبي الذي تحول فيه الذكر إلى مهنة تقام لها الزوايا، ويأوي إليها من يتجردون للذكر، والأوقاف مرصودة لهم، والأرزاق دارة عليهم، وهم يحسبون أنهم على المنهج الرشيد بانقطاعهم للذكر، وينسون

أن المطلوب من المسلم أن يذكر الله تعالى على كل حال في السوق والحقل والمصنع والمستشفى والمدرسة.

والمطلوب من المسلم ألا يتعلق قلبه بالدنيا ولو ملك منها الملايين، فذلك يكون في يده لا في قلبه.

وقد تمثل هذا التكامل والنظرة الشاملة إلى الحياة والإنسان في شخص الرسول الكريم عليه وآله الصلاة والسلام، وفي جيل الصحابة، رضي الله عنهم، الذين فتحت الدنيا عليهم بعد الفتوح، فكانوا نماذج خيرة في التعامل مع الدنيا وزينتها.

إن من المهم لضبط النظرة للموت وتصوره تصورا صحيحا أن يكون واضحا في ذهن الإنسان جواب عن سؤال: لماذا خلقني الله تعالى؟

وما الذي يتجلى من خلالي وفيّ من الأسماء الحسنى؟

وكيف أسهم في عمارة الأرض التي تتجلى فيها آيات الله تعالى؟

و كيف أكون وأنا أعمر الأرض من العابدين ؟

الإنسان مخلوق مكرم.

والحياة والخلق نعمة يشكر الله تعالى عليها،

وليس الإنسان في ورطة،

وليس الموت عقوبة بل هو جسر وبوابة ينتقل من خلاله إلى عالم الخلود،

ولكن يكون الموت كذلك حين يدرك الإنسان المعنى الشامل للعبودية ويسعى إلى تحقيقها.

الله تعالى لم يقل لنا إن الدنيا هي دار القرار بل قال: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦].

ولم يقل إن كل بني آدم سواء بل ميز بين المؤمنين والكافرين، ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤].

وقال سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[الجاثية: ٢١].

في ضوء الفهم للحياة والإنسان يكون تصور الموت وما بعده.

الأموات ليسوا سواء

من المشكلات التي توجد تصورا سلبيا للموت لدى الناس أن بعض المتحدثين عنه لا يفرقون في الحديث بين ما يلقاه المؤمنون وما يكون لغير المؤمنين مما يجعل الصورة غائمة مضللة.

فهل يستوي من آمن بالله وكتبه ورسله والملائكة واليوم الآخر ومن كان كافرا ؟

الجواب نجده في كتاب الله تعالى في أكثر من موضع فيها الحديث عن المؤمنين في الدنيا وعند الموت ويوم القيامة:

﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴾ [السجدة: ١٨].

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية: ٢١].

وحين حدثنا القرآن الكريم عن موت الذين كفروا قال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟

ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴾ [الأنفال: ٥٠].

وأما المؤمنون فوصف حالهم بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٣٢].

إذا لا بد عند الحديث عن الموت أن يكون واضحا لدى المتحدث والسامع أن الأموات ليسوا سواء: حالهم حال المسافرين.

فليس من يمشي على رجليه كمن يسافر في سيارة أو حافلة أو طائرة.

فلكل مسافر بواحدة من هذه الوسائل أحوال مختلفة، وليسوا جميعا سواء حين يصلون محطة الاستقبال:

فهناك من يستقبل استقبالا خاصا حافلا بحفاوة وتكريم في صالة كبار الزوار،

ويجد من يأخذ عنه متاعه وحقائب سفره، ويستقبل في أحسن الفنادق،

وإذا كان مسؤولا كبيرا ينزل في بعض القصور.

هذا حال مسافري الدنيا،

وقل مثل ذلك في مسافري الآخرة الذين يعبرون قنطرة الموت إلى عالم البرزخ،

فهم ليسوا سواء، ولكل منهم حال يناسب منزلته عند الله، ومنزلته عند الله مرتبطة بإيمانه و صالح عمله.

ومن أوضح وأجمل من عبر عن الأحوال المختلفة للموتى التابعي أبو حازم الأعرج رحمه الله تعالى، الذي دار حوار بينه وبين سليمان بن عبد الملك، ومما دار في ذلك الحوار حديث عن الموت،

فقد سأل سليمان أبا حازم سؤالا مهمّا يتردد على ألسنة بعض الناس هو: يا أبا حازم، ما لنا نكره الموت؟.

وجاء الجواب الحكيم من أبي حازم الحكيم الذي يدرك الحقائق ويكشف الأسباب.

قال: لأنكم خربتم آخرتكم، وعمرتم دنياكم، فكرهتم أن تنقلوا من العمران إلى الخراب.

ولنا أن نسأل فنقول: من الذي يكره الموت؟

هل يكره الموت من يعلم أن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر؟

هل يكره الموت من يعلم أن الآخرة خير وأبقى من الدنيا؟

هل يكره الموت من تزود بالعمل الصالح وهو يعلم أنه يقبل على رب كريم غفور رحيم؟

الذي يكره الموت هو: من رضي بالحياة الدنيا واطمأن بها، والآخرة عنده ظن أو خيال أو وهم وليست حقيقة ثابتة.

ولنقف على بقية ما له علاقة بالموت من كلام الحكيم أبي حازم، ذلك الكلام الذي يكشف بنور العلم والإيمان ما يكون مع الإنسان عند موته، وشتان بين حال المؤمن وحال الكافر.

قال سليمان: كيف القدوم على الله؟.

قال أبو حازم: يا أمير المؤمنين، أما المحسن فكالغائب يقدم على أهله، وأما المسيء فكالآبق يقدم على مولاه (أي العبد الهارب من سيده يرجع إليه قسرا).

كلام قليل لكنه بليغ كاشف عن حال الراحلين ليكون استقبال كلٍّ منهم على مقدار حاله.

فشتان بين من يعود إلى أهله بعد غياب فيستقبل بالحفاوة والترحاب، ومن يكون هاربا من سيده أو مجرما هاربا من سجنه، هل يستويان؟.

ليس الناس عند الموت سواء كما أنهم لم يكونوا في الحياة سواء،
بل يموت المرء على ما عاش عليه ويبعث على ما مات عليه.

لغز الموت

مع أن الموت حقيقة لا يماري فيها مؤمن ولا كافر إلا أنه لكثير من الناس لغز، لغز محير يقفون أمامه عاجزين حائرين،

ذلك أن مما يثيره الموت سؤال هو: ما الذي يؤدي إلى موت الإنسان؟.

هل المرض سبب للموت؟

هل الهرم سبب للموت؟

هل السفر سبب للموت؟

وهكذا تتوالى الأسئلة وتتردد أصداؤها،

ويظل الجواب حائرا في العيون وعلى الشفاه،

ألم يقل زهير بن أبي سلمى الشاعر الجاهلي معبرا عن حيرته في الوقوف على سبب مقنع لحدوث الموت:

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب
تمته ومن تخطيء يعمر فيهرم

فليس للموت عنده قانون ولا سبب معلوم،

ولذلك جعله أمرا عشوائيا: كخبط الناقة التي لا تبصر في الليل فما وقع تحت خفّها داسته فمات وإلاّ نجا من الموت إلى حين.

والجواب الحاسم لوقوع الموت هو ما جاء في كتاب الله تعالى وعلى لسان نبيه محمد عليه وآله الصلاة والسلام وهو القول الفصل الذي لا جواب بعده.

حدثنا القرآن الكريم عن رحلتنا على هذه الأرض،

بدءا من خلق الله تعالى البشر من طين،

ثم نفخ الروح فيه،

ثم امتداد النسل عبر الأجيال من ماء مهين،

ولكل مخلوق من بني آدم وقت تكوّن وتخلّق، ومدة حياة ووقت رحيل.

وقت الرحيل هو ما سماه القرآن الكريم: الأجل

وهو لحظة انطفاء نور الحياة في الجسد، وانفصال الروح عنه وتعطل أجهزته، مما يحوّله إلى جثمان يجعل أحب الناس إليه يعيدون جسده إلى أمه الأرض التي منها خلق، وبنفخة الروح صار إنسانا متميزا عما سواه من الكائنات،

ومظهراً للأسماء الحسنى في أبهى صورها، وسيدا للأرض سخر الله تعالى له ما في السماوات والأرض لتتحقق له شروط الحياة ويتمكن من عمارة الأرض وعبادة الله.

قال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [غافر: ٦٧، ٦٨].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ [آل عمران:١٤٥].

وقال: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ [المنافقون: ١١].

وقال رسول الله عليه وآله الصلاة والسلام:

«لن تموت نفس حتى تستوفي رزقها وأجلها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب».

والأجل هو الوقت المحدد لوقوع الشيء أو استيفائه، فأجل الدين وقت سداده، وأجل الإنسان وقت وفاته وانفصال روحه عن جسده.

إن الأجل المحدد هو الذي يفسر موت الإنسان أحيانا من غير سبب ظاهر، مما ينسبه الأطباء إلى سكتة قلبية، او يضعون له أسبابا ولكن الجواب هو: الأجل.

ومن لغز الموت ما نراه من وفيات قد يقف العقل أمامها حائرا، وأضرب أمثلة واقعية شهدتها ولكل قارئ تجاربه وحوادث شهدها تضاف إلى ما أقول:

شاب يموت في يوم احتفاله بتخرجه في الجامعة، نام صبيحة ذلك اليوم ولم يصح.

وفتاة تموت في عز الشباب بعد يومين من كتابة كتابها، ومن غير مرض ظاهر؛ استلقت في الظهيرة لترتاح قليلا فكانت نومتها الأخيرة.

وقل مثل ذلك في ميتات كثير من الناس في مختلف الأعمار يقف المرء أمامها متسائلا: لماذا؟ ولكنه لا يجد جوابا شافيا.

وأقول: في سورة الكهف بعض الجواب في

قصة موسى مع العبد الصالح حين قتل الغلام، وفي إيماننا بحكمة الله من قبل ومن بعد، وأنه ما من شيء في هذا الوجود وجد عبثا بل وراءه حكمة بالغة، قد ندركها وقد تخفى علينا.

ومن حكم الله التي لا تخفى علينا أن يبتلي عباده بالخير والشر فتنة، أي اختبارا لإيمانهم،

ليظهر من يجزع ويسخط فيبوء بالإثم،

وليظهر استسلام المؤمن لربه الذي أعطى، ولربه الذي أخذ، وليردد بيقين: (إنا لله وإنا إليه راجعون).

ومن الآيات التي تحدثت عن الموت والحياة والابتلاء وهي كثيرة قوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ﴾ [المُلك: ١،٢].

ولعل مما ينبغي التنبه إليه في الآية الثانية الحديث عن خلق الموت، فالموت مخلوق وليس عالم فناء،

وسنرى من بعد إن شاء الله حديث القرآن

والحديث النبوي عن الموت وتفصيلاته لنجد أنفسنا أمام عالم غيبي لا أمام عدم وزوال.

الموت ولادة

ليس الموت تلاشيا ولا زوالا ولا فناء بالمعنى المتبادر إلى الأذهان الشائع في الحديث عن الموت لدى كثير من الناس، وما يتبع ذلك لديهم من الإحساس بالفقد والفجيعة، وقلة قيمة الحياة وسرعة زوالها، وذلك كله سببه النظر إلى الجسد الذي نضعه في القبر وما يؤول إليه.

وقد قرّب القرآن الكريم إلينا مفهوم الموت حين بين أن النوم هو نوع من الموت اليومي الذي ندخل فيه ونخرج منه، وذلك في قوله: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[الزُّمَر: ٤٢].

ولكن هذا الموت اليومي (النوم) لا تكون له آثار في الجسد كالموت الذي تفارق فيه الروح

الجسد بنزعها منه

ولتكتمل صورة الموت وندرك حقيقته يجب أن ننظر إلى ما يحدث عند الموت في عالم الغيب والشهادة معا،

الموت يعني مفارقة الروح للجسد

وينتج عن ذلك تعطل أجهزة الجسد من سمع وبصر وإدراك وحركة وتفاعل،

ذلك ما يكون من شأن الجسد بعد مفارقة الروح له، ولكن هل تكتمل الصورة دون معرفة ما يحدث مع الروح؟

إذا كان الجسد يعود إلى التراب الذي كان منه الخلق أول مرة ومنه تغذى مدة حياته مما أنبت الله تعالى منه وما تغذى عليه من الحيوان، فإن النفس أو الروح لها شأن آخر شأن مختلف عن القبر وما نراه من أحوال الجسد،

إن الروح بالموت تولد ولادة جديدة،

ولكنها ولادة مرتبطة بمسار الإنسان في حياته.

فللمؤمن ولادة مختلفة عن ولادة الكافر أو العاصي، وذلك من أمر الغيب الذي حدثنا عنه الصادق المصدوق سيدنا محمد عليه وآله الصلاة

والسلام، لنكون على بينة من أمر مسار حياتنا بعد الرحيل عن الدنيا،

وسأسرد الحديث النبوي المتعلق بهذا الأمر وأطلب من القراء الكرام أن يستحضروا صورة الولادة وهم يقرؤون الحديث وأستذكر كلمة قرأتها قديما في بعض الكتب هي وصف ملك الموت بأنه: قابلة الأرواح.

والحديث منقول من كتاب: صحيح الجامع الصغير للشيخ محمد ناصر الدين الألباني في الجزء الأول من الصفحة ٣٤٤ ورقم الحديث ١٦٧٦ والحديث صحيح رواه: الإمام أحمد وأبو داود وابن خزيمة والحاكم والبيهقي في شعب الإيمان والضياء المقدسي في المختارة عن البراء بن عازب ﷺ وهذه الرواية الواردة في صحيح الجامع حوت الزيادات الواردة في الروايات المختلفة فجاءت شاملة كما ذكر الشيخ الألباني رحمه الله ورحم موتانا أجمعين: قال رسول الله ﷺ:

«إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه من السماء ملائكة بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس،

معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مدَّ البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول:

أيتها النفس الطيبة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان،

فتخرج، فتسيل كما تسيل القطرة من في السقاء، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض».

ولنقف عند هذا المقطع من الحديث وقفة تدبر: هذا ما يحدث مع النفس أو الروح وهو أمر غيبي مختلف عما يحدث للجسد مما يشهده الناس.

فإذا كان فراق الروح للجسد ينتج عنه في الجسد ما نعلم ونرى فإن الحديث يكشف لنا عما لا نرى من شأن النفس أو الروح من مشهد، لا أقول يشبه بل هو مشهد ولادة حقيقية،

وكأننا في غرفة ولادة فيها من يقوم بالتوليد: هو ملك الموت،

وهناك المساعدون: الملائكة بالوصف الحسن

للمؤمن، ومعهم ما تلف به النفس الطيبة، لمفارقتها الجسد وتغير الحال عليها، مما يستدعي أن تلف بكفن جاء به الملائكة من الجنة.

وتستقبل بحنوط: أي طيب من الجنة وتفوح منها نفحة مسك طيبة.

فنحن في جو ليس فيه الحزن الموجود لدى المودعين للميت في الدنيا،

بل نحن في موقف استقبال للروح المغادرة للدنيا، وهو استقبال طيب بكل المعاني يذكرنا بقول الله تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ﴾[النحل: ٣٢].

في هذا الاستقبال يجد المؤمن لنفسه شأنا بين الملائكة الطيبين،

ويكون في حال من السعادة لو علم بها من يبكي عليه لفرح وقرت عينه،

وليس ذلك فحسب، بل يجد المؤمن نفسه في رحلة عروج إلى السماوات العلى في رفقة

الملائكة.

فبعد أن يقبض ملك الموت النفس الطيبة وتلفها الملائكة في كفن من الجنة وحنوط من الجنة يبين لنا الحديث الشريف ما يفعله الملائكة الكرام بهذا الضيف فيقول:

«يصعدون به فلا يمرون على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب؟» (أي الرائحة الطيبة).

«فيقولون: فلان بن فلان – بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا- حتى ينتهوا به إلى سماء الدنيا، فيستفتحون له فيفتح له،»

لنتذكر هنا معراج النبي عليه وآله الصلاة والسلام وما كان من استفتاح له في كل سماء

«فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها، حتى ينتهي إلى السماء السابعة فيقول الله عز وجل:

اكتبوا كتاب عبدي في عليين
وأعيدوا عبدي إلى الأرض
فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم
ومنها أخرجهم تارة أخرى».

يحدث هذا له في موكب حافل ينتهي به في السماء السابعة وهذا مشهد مختلف عما يحدث في عالم الشهادة مع الجسد ومع المشيعين والمودعين من أهل الدنيا

«فتعاد روحه (أي إلى عالم الأرض
فيأتيه ملكان فيجلسانه»

وهذا في عالم الغيب لا في عالم الشهادة بعد أن يتأقلم مع العالم الجديد الذي لف فيه أول دخوله بكفن من الجنة ويصبح بعد رحلة المعراج قادرا على الحركة والجلوس والجواب عما يسأل عنه، بعد أن لقي من التكريم وحسن الاستقبال ما لقي ولاحظ أنه لم يرد في هذا الحديث ما يوحي بسوء منظر الملكين لأن المسؤول مؤمن مُكرَّم، وسؤاله من باب إثبات ما هو مركوز في فطرته وما عاش عليه وما مات عليه

«فيقولان له: من ربك ؟
فيقول: ربي الله
فيقولان ما دينك؟
فيقول: ديني الإسلام
فيقولان: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟

فيقول: هو رسول الله

فيقولان: وما علمك؟

فيقول: قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت».

وإجابات هذه الأسئلة مما عاش المؤمن وهو يرددها صباح مساء، في صلواته، وجلواته وخلواته، فهل يجد صعوبة في الإجابة عنها؟.

ولا ننسى قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

«فينادي مناد من السماء: أن صدق عبدي

فأفرشوه من الجنة

وألبسوه من الجنة

وافتحوا له بابا إلى الجنة

فيأتيه من روحها وطيبها، ويفسح له في قبره مد بصره».

وهذا يعني يقينا أننا لا نتحدث عن القبر الضيق بكل ما يحدث للجسد فيه من تغيرات محسوسة، بل نتحدث عن عالم آخر يعيش فيه هذا الراحل عن دنيانا ويسمى (الميت) بلغة أهل الدنيا،

وهذا الذي وصفه هذا الحديث بعض أحوال الميت عند انتقاله إلى البرزخ.

وله أحوال أخرى تحدثت عنها أحاديث أخرى كثيرة

ولا ينتهي الأمر عند هذا الحد من حسن الاستقبال والتكريم، والعروج إلى السماوات، والسؤال والجواب، والفسح في القبر، والتواصل مع نعيم الجنة،

بل لا بد لهذا الراحل عن أهله وأحبابه من أنيس في وحشته وغربته إن بقيت له بعد كل ما كان معه وحشة وغربة

«ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح،

فيقول: أبشر بالذي يَسُرُّك، هذا يومك الذي كنت توعد.

فيقول: من أنت فوجهك الوجه الذي يجيء بالخير؟

فيقول: أنا عملك الصالح.

فيقول: رب أقم الساعة، رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي!!!».

ونجد أن الإنسان يظل الإنسان المحب لبني جنسه وأهله وما خوّله ربه من نعم، ولذلك يقول

ما ورد من رغبة في قيام الساعة ولقاء أهله وماله.

هذا هو حال العبد المؤمن عند رحيله من الدنيا وما يلقاه من أحوال في عالم البرزخ وله أحوال أخرى نفصلها من بعد، ولكن للكافر حالا آخر بينه الحديث الشريف لنا معه وقفة تالية.

موت الكافر

رأينا ما يكون من أمر المؤمن عند الموت من ولادة وحفاوة وحسن استقبال وتكريم،

وما يراه من حسن العاقبة، والأنس بعمله الذي يتجسد في أحسن صورة،

وهل كل الناس من المؤمنين؟

وهل يستوي من عاش طيبا في قوله وعمله وسليم المعتقد ؟

ومن كان كافرا بالله، قبيح العمل عاش لاهيا غافلا لا يحسب للقاء ربه حسابا، بل لا يؤمن به ولا بيوم الحساب، وذلك ما بينته الآية الكريمة:

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[الجاثية: ٢١].

وكما بين لنا الحديث الشريف الطويل حال المؤمن بعد الموت، فكذلك بين لنا ما يكون مع الكافر كذلك من حال بعد موته.

فإذا كان المؤمن تتنزل عند وفاته ملائكة كأن

وجوههم الشمس نجد الكافر تنزل عليه من السماء لتلقي روحه ((ملائكة سود الوجوه معهم المسوح)) (أي الثياب الخشنة).

وإذا كانت روح المؤمن الطيبة تخرج كالقطرة من فم السقاء، فإن ملك الموت يقول عن روح الكافر وهو ينزعها:

«أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب فتفرّق في جسده فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول»

وهنا نلحظ الفرق بين المؤمن الذي تخرج روحه من جسده إلى خير مما كانت فيه فلا تتشبث بالجسد،

والكافر الذي يجد هولا مقبلا عليه فتتمسك روحه بجسده، وأول ما يلقاه بعد النزع أن تلف روحه بالمسوح الخشنة.

وفي مقابل الرائحة الطيبة من المؤمن،

«يخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على الأرض».

إنه نتن المعتقد الفاسد والعمل الطالح والنفس التي كانت تنطوي على كل خبيث من الفكر والرأي والتدبير.

ويتأذى الملائكة الذين يمر بهم حملة تلك الروح من نتن ريحها.

وإذا كان المؤمن قد فتحت له أبواب السماء

فصعد في معراج رأى فيه ملكوت السماوات وإكرام سكانها من الملائكة، فإن الكافر يستفتح له ليدخل السماء وأنى تفتح له؟

والله تعالى يقول:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ ﴾ [الأعراف: ٤٠].

وإذا كانت روح المؤمن يكتب كتابها في عليين

وتلبس من الجنة

وتفرش من الجنة

ويفتح لها باب إلى الجنة.

فإن الله تعالى يقول في حق الكافر:

«اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى فتطرح روحه طرحا فتعاد روحه في جسده»

وهي إعادة لا نشهدها، فهي ذات صلة بعالم البرزخ، لأن الروح عندما تغادر الجسد بالموت لا تعود إليه عودة نشهدها قبل يوم القيامة، وتاريخ البشر دليل ذلك.

وفهم النص فهما حقيقيا يدل على ذلك،

ويأتي الملكان للسؤال.

والحديث الذي نستمد منه المعلومات لم يعط وصفا للملكين لا مع المؤمن ولا مع الكافر، ولكن أحاديث أخرى تعطيه أوصافا مرعبة تناسب حال الكافر

ويتعرض الكافر للأسئلة نفسها:

«من ربك؟

وما دينك؟

وما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟»

وأنى له أن يعرف ما جهل في دنياه والموقف موقف هول؟

وللمسؤول هنا حال مختلف عن المؤمن الذي لقي الاستقبال الحسن،

وهذا الكافر لقي السوء منذ دخوله البرزخ،

ولذلك يكون جوابه عن كل سؤال: «هاه هاه لا أدري» ويأتي الأمر الرباني: «أن كذب عبدي فافرشوه من النار وافتحوا له بابا إلى النار فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه»

وهذا ليس كل شيء

إنها البداية

إنه الاستقبال الذي يستحقه من كان في هذه أعمى عن ربه وآياته، وكفر به وعاش متبعا هواه.

وكما جاء المؤمنَ رجلٌ في أحسن صورة،

هو عمله الذي تمثل له، فكذلك يتمثل عمل الكافر،

«ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول: أبشر بالذي يسوؤك هذا يومك الذي كنت توعد»

ويكون رد فعل الكافر حين يرى كل ما مر به:

«رب لا تقم الساعة»

لأن البدايات تبشر بالنهايات فإذا كان هذا هو الاستقبال فماذا يكون المآل؟.

نسأل الله السلامة والعافية والهداية والسداد.

عقيدة الموت ومنهج الحياة

الموت وتصوره جزء من عقيدة المسلم، ولهذه العقيدة أثر في توجيه حياته، ومن لوازم العقيدة أن يضع المؤمن نصب عينيه أنه لم يخلق للدنيا بل جاء إليها للابتلاء. الابتلاء بالخير والشر كما بينت ذلك أكثر من آية كريمة ومنها قوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

ومن الآيات الكريمة التي تحدثت عن الموت الذي هو مصير كل نفس قوله تعالى:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وقوله سبحانه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

ومع أن الموت حقيقة مشاهدة، وقضية مسلَّم بها، فإن كثيرا من الناس ينسونها ويغفلون عنها، ويعيشون حياة من يظن الدنيا دار بقاء.

ولذلك جاء القرآن ببيان هذه الحقيقة وجلائها للناس ببيان: أن الخلود في الدنيا ليس ممكنا، لا لعامة الناس ولا للرسول الكريم عليه وآله الصلاة والسلام:

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٤].

ومعلوم بداهة وبالتجربة أن الخلود في الدنيا متعذر لكن الإنسان الغافل يسعى إلى ما أسميه الخلود المتوهم، ذلك الخلود الذي نفاه القرآن.

بعد هذه الحقيقة التي جلاها القرآن في شأن الموت يأتي أمر آخر يتعلق بالأجل، أي وقت رحيل الإنسان عن الدنيا، ذلك الأمر الذي أخفاه الله تعالى رحمة منه بعباده ولو كشف للإنسان وقت وفاته لأصابه الهلع، وقضى شطرا من عمره وهو في هم وغم يترقب ساعة الرحيل التي حددت له.

وفي مقابل ذلك كان من عقيدة المسلم في شأن الموت أن لكل إنسان أجلا محددا، وساعة لا يتقدم عنها ولا يتأخر، وإن جهلها.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ [آل عمران: ١٤٥] أي محددا بوقت معين.

هذا الإيمان، وهذه العقيدة، تولد في نفس المؤمن الاستقرار والطمأنينة والشجاعة،

فلا يهاب شيئا، ولا يخاف من انقضاء أجله قبل أوانه،

ولا رادّ للموت في وقته عن الإنسان، ولو اتخذ من دونه ما استطاع من الموانع، قال سبحانه:

﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

ويبين القرآن الكريم حال الكافرين وموقفهم من الموت وينهى المؤمنين عن مشابهتهم بربط الموت بأسباب متوهمة من سفر أو قتال، قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا

مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْۗ وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [آل عمران: ١٥٦].

وقد بين النبي عليه وآله الصلاة والسلام هذه المعاني المتعلقة بالموت في حديث يضم إلى الموت الرزق وأنه مقدر معلوم، وما على الإنسان إلا أن يسعى في اكتساب ما قدر له في قوله:

(إن روح القدس نفث في رُوعي أنّ نفساً لن تموت حتى تستكمل أجلها وتستوعب رزقها و فاتقوا الله وأجملوا في الطلب) (صحيح الجامع الصغير الحديث رقم ٢٠٨٥).

وهكذا يكون أثر عقيدة الموت في حياة المؤمن منهج استقامة، لأنه يعلم أنه محاسب على ما يعمل

وتتولد لديه قوة وصلابة، لأنه يعلم أن الأجل بيد الله لا سلطان لأحد عليه.

أصناف الموتى

الغريب في أمرنا مع الموت وما يشيع في شأنه من تصورات، أن القرآن الكريم، والحديث الشريف فصلا أمره تفصيلا يفترض أن يجعلنا على بينة من أمرنا معه، فلا تضل بنا الأفكار ولا تتيه بنا الظنون.

الموت سفر وارتحال، بعد إقامة قد تطول وقد تقصر، ومن منا لم يقرأ خواتيم سورة الواقعة التي تبين بجلاء أن الناس عند الموت ثلاثة أصناف؟ كما بين مطلعها أن الناس ثلاثة أصناف في الآخرة ؟

هناك حالة يواجهها كل ميت وهي خروج الروح، وهي حالة يعجز الناس عن منعها من الحدوث أو التدخل فيها،

﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الواقعة: ٨٣-٨٧].

إنه الأمر المشترك بين الموتى بمفارقة الروح

للجسد، واجتياز بوابة الموت والارتحال من عالم الشهود إلى البرزخ غير المشهود،

ولكن هل كل المسافرين سواء؟ وهل كل الموتى سواء؟.

لننظر في الآيات:

نحن في الصنف الأول مع المقربين الذين تحدثت الآيات في مطلع السورة عنهم وسمّتهم السابقين ووصفتهم بالمقربين،

وقالت إنهم ثلة من الأولين وقليل من الآخرين ووصفت موتهم هكذا:

﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة: ٨٨-٨٩].

إنهم المقربون من ربهم بما وقر في قلوبهم من اليقين، وما أمضوا به حياتهم في طاعة لله فوق ما هو مألوف، لأنهم أدركوا حقيقة الحياة وعرفوا حق الله،

فجعلوا حياتهم كلها لله،

فنالوا درجة القرب بفضل من الله وتوفيقه واجتبائه أو هدايته،

هؤلاء المقربون بعد الموت في:

روح: أي رحمة وراحة وسرور لما يلقونه من تكريم عند الموت وحسن استقبال.

وريحان: أي يلقون الرائحة الطيبة والرزق الحسن وذلك ما فصله الحديث الشريف الذي تحدثنا عنه من قبل.

وجنة نعيم: فهم بعد الوفاة يرون مقعدهم في الجنة وتتحول روحهم إلى طائر يتمتع بما في الجنة تمتعا خاصا يليق بمنزلتهم.

فهم في نعيم: نعمة ظاهرة ونعمة باطنة.

هذا هو الصنف الأول .

وأما الصنف الثاني : فهم أصحاب اليمين، وجاء بيان حالهم بهذا التعبير الموجز

﴿فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٩١].

وإذا كان السلام موجها إليك منهم فهذا يدل على ما هم فيه من سلام وأمان وحسن حال ونجاة من الأهوال،

فلا يأتي السلام إلا ممن كان هو في سلام.

ويأتي الحديث عن الصنف الثالث وهو صنف مختلف عن المقربين وأصحاب اليمين فهما من المؤمنين،

والصنف الثالث من الضالين المكذبين:

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ [الواقعة: ٩٢-٩٤].

والضال هو الذي لم يهتد إلى الصراط المستقيم ولم يعرف ربه ولم يؤد حق عبادته،

وأساس الضلال التكذيب بالحق الذي جاء به رسول الله عليه وآله الصلاة والسلام من ربه.

فمن صدَّق بذلك وصدَق مع الله اهتدى واستقام، هؤلاء يستقبلون عند الموت بنزل من حميم

والنزل هو: ما يقدم للضيف عند نزوله من طعام وشراب، وأول شرابهم الحميم الذي يغلي في البطون ولا يروي من ظمأ،

ومع هذا الحر المشتعل في البطون لفحات النار التي يصلونها، وهي عينات من الجحيم تأتيهم قبل أن يؤولوا إليها يوم الدين.

هكذا حدثتنا سورة الواقعة عن أحوال الموتى وأصنافهم فليختر كل منا ما يحب أن يكون له من حال واستقبال،

نسأل الله السلامة والعافية.

ولعل من المفيد أن نقرأ سورة الواقعة بداية وختاما لنستكمل تصور مشهد ما بعد الموت وما بعد ذلك من حال يؤول إليه كل صنف في الآخرة بعد بعث الناس في يوم النشور.

من يكره الموت ؟

ليس الجواب عن هذا السؤال: كل الناس يكرهون الموت، لأن المؤمن الذي يعلم:

أن ما عند الله خير وأبقى.

وما عند الله خير للأبرار.

وأن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر.

لن يكره الموت.

ولن يؤثر حب الدنيا على الآخرة.

ذلك أنه يعلم أنه مهما يعش فإنه ميت.

ومهما يجمع فإنه تاركه.

وأيا كان من يحب فإنه مفارقه.

إنه لا يتمنى الموت كراهية في الحياة بل يجعل الحياة مزرعة لما بعدها.

ويتزود منها التقوى

ويحب الموت طمعا في ما عند الله تعالى من خير.

وقد بين القرآن الكريم أن كره الموت وحب الدنيا والتعلق بها من علامات الكفر والنفاق،

ففي حديث القرآن الكريم عن بني إسرائيل

بين ما هم فيه من ضلال يمنعهم من تمني الموت ويدفعهم إلى التشبث بالحياة، قال تعالى في سورة البقرة مخاطبا إياهم:

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٩٤].

وجاء التعقيب على هذا الطلب ببيان أنهم لن يتمنوه والسبب سوء أعمالهم:

﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٩٥].

وما داموا لا يتمنون الموت لسوء أفعالهم فإنهم حريصون على الحياة الدنيا لا يريدون مغادرتها، ويشارك بني إسرائيل في ذلك المشركون الذين لم يكن لهم كتاب يرجعون إليه، قال تعالى:

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ

مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ٩٦].

وتكرر هذا الطلب أو التحدي بتمني الموت في سورة الجمعة:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الجمعة: ٦-٧].

وقد أتبع القرآن الكريم هذا التحدي ببيان أنه لا بد من الموت، ولا مهرب منه فلعلهم إن آمنوا بذلك يصلحون أحوالهم: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجمعة: ٨].

وقد بين القرآن الكريم أن المنافقين هم كذلك يكرهون الموت ولذلك يهربون من القتال حذر الموت وجاء الجواب على فرارهم من المواجهة في سورة الأحزاب:

﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ١٦].

وقد جاءت مواقف عتاب في القرآن الكريم لبعض المؤمنين الذين غشيتهم غاشية ضعف من الموت في غزوة بدر حين خرج المسلمون والمتوقع الاستيلاء على القافلة، وكان القتال مستبعدا لدى بعضهم، فلما نجت القافلة وتأكد القتال جاء وصف القرآن الكريم لهم هكذا:

﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ [الأنفال: ٥-٦].

وكذلك ما كان من بعض المؤمنين في غزوة أحد من فرار وهرب من الموت الذي تمنوه قبل المعركة فلما وقع القتال واشتد ولّوا الأدبار، واستزلّهم الشيطان ببعض ما كسبوا فجاء القرآن الكريم ليقوّم ما كانوا عليه من حال، ويرفع من درجة إيمانهم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ

مِن قَبۡلِ أَن تَلۡقَوۡهُ فَقَدۡ رَأَيۡتُمُوهُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٤٣].

في مقابل هذه الصورة نجد المؤمن يحب الموت ولذلك يقدم على الجهاد في سبيل الله، ويقاتل بشجاعة، لأنه يعلم أن للشهيد الذي يقتل في سبيل الله منزلة عالية،

ولذلك كان رد المؤمنين على المنافقين الذين كانوا يتربصون بالمؤمنين الدوائر ما أمرهم به ربهم سبحانه: ﴿ قُلۡ هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ وَنَحۡنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمۡ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٖ مِّنۡ عِندِهِۦٓ أَوۡ بِأَيۡدِينَاۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾ [التوبة: ٥٢].

ولو رجعنا إلى آيات الأمر بالقتال لوجدناها تحض المؤمنين عليه، وتدعوهم إلى نيل درجة الشهادة، وتحبب إليهم القتل في سبيل الله ومن ذلك قوله:

﴿ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ

عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

وانظر جمال التصوير لما هم فيه من حال يدفع إلى اللحاق بهم:

﴿ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ [آل عمران: ١٧٠].

بعد هذا أعيد السؤال وأقول: ترى من يخاف الموت؟؟

الروح والجسد

في الموت مفارقة الروح للجسد، وبهذه المفارقة يتحلل الجسد ويبلى، وبالموت يدخل الإنسان عالم البرزخ الذي قال الله تعالى عنه:

﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠].

ولكن صلة ما تظل بين الروح والجسد، صلة لا نعرف كنهها ولكننا نؤمن بها، فقد أخبر بها النبي عليه وآله الصلاة والسلام، في أحاديث كثيرة، منها أن من السنة التي علمها لأمته السلام على أهل القبور، ومن ذلك ما رواه مسلم أن يقولوا:

«سلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، يرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين، نسأل الله لنا ولكم العافية».

ومن ذلك ما رواه الشيخان عن رسول الله عليه وآله الصلاة والسلام «أن الميت يسمع قرع نعال المشيعين له إذا انصرفوا عنه».

ولا يعني هذا أن السمع يتم بأذني الجسد الذي

تعطلت حواسه بل بالروح التي فارقت الجسد وبقيت على نوع من الصلة به، فللميت بعد الموت أحكام تليق بعالم البرزخ الذي تختلف أحكامه وأحوال من فيه عن عالم الدنيا. ففي الوقت الذي يكون للروح صلة بالجسد تجعل من المسوغ السلام على الموتى عند زيارة القبور، فإن لروح المؤمن حالا يبينها قول النبي عليه وآله الصلاة والسلام في الحديث الذي رواه الترمذي: «نسمة المؤمن وهي روحه طائر يعلق في شجر الجنة حتى يردها الله إلى جسدها» كما بين في حديث رواه أن «أرواح الشهداء في حواصل طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها» (رواه الترمذي وابن حنبل)

الذكر وبوابة الخلود

الموت بوابة الخلود، وهو حق لا مرية فيه، فكل نفس ذائقة الموت، والمؤمن يستعد للقاء ربه سبحانه وتعالى بالعمل الصالح في حياته كلها،

وكذلك يحرص إن أصابه مرض الموت أن يختم له بصالح القول والعمل، وخير ما يختم به الإنسان حياته كلمة التوحيد.

روى أبو داود وغيره عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة».

وإذا كان المريض مرض الموت واعيا قادرا على الكلام فإنه لابد سيحرص على ذلك،

وإذا كان يدخل في غيبوبة من حين لآخر كان من حقه على من يرافقه أن يذكّره بكلمة التوحيد كلما صحا ليختم له بخير.

ولموقف الموت آداب علمنا إياها الرسول الكريم ﷺ، الذي علمه ربه سبحانه من أمر الغيب والشهادة ما نقله إلينا، وهدانا به إلى الطريق المستقيم، روى مسلم عن أم سلمة

رضي الله عنها قالت: دخل رسول الله ﷺ على أبي سلمة وقد شق بصره (أي بعد فراق روحه لجسده) فأغمضه، ثم قال: «إن الروح إذا قبض تبعه البصر» فضج ناس من أهله، فقال: «لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون» ثم قال: اللهم اغفر لأبي سلمة، وارفع درجته في المهديين، واخلفه في عقبه في الغابرين، واغفر لنا وله يا رب العالمين، وافسح له في قبره ونور له فيه» وفي رواية أخرى لمسلم عن أم سلمة قالت: «فلما مات أبو سلمة أتيت النبي ﷺ فقلت له: إن أبا سلمة قد مات قال: فقولي: اللهم اغفر لي وله، وأعقبني منه عقبى حسنة، فقلت: فأعقبني من هو خير لي منه؛ محمدا ﷺ» .

إن في هذا الحديث بروايتيه آدابا تتعلق بالميت وأهله، فأما الميت فرأينا كيف أغمض النبي عليه وآله الصلاة والسلام عينيه، وأما أهله فرأينا التوجيه النبوي لهم بعدم الجزع أو قول ما لا يليق بالموقف من دعاء على النفس وبين أمرا مغيبا عن أبصارنا هو أن الملائكة في هذا الموقف تكون حاضرة وتؤّمن على ما يدعو

الناس به فليكن الدعاء بخير، وكذلك وجه النبي ﷺ المصاب بمصيبة الموت، وهي هنا في الحديث أم سلمة رضي الله عنها إلى الدعاء بما يصبّر على المصيبة، وبما يفتح الباب لتكون عقباها خيرا، وقد ضربت أم سلمة لنا مثلا مما كان معها حين صارت من بعد أمّا للمؤمنين حين تزوجها النبي ﷺ.

ومن آداب هذا الموقف حين يموت الميت الدعاء له، وخير ما ندعو به ما كان من دعاء في كتاب الله أو علمنا إياه رسول الله عليه وآله الصلاة والسلام،

وهنا نجد الدعاء للميت بالمغفرة:

«اللهم اغفر لأبي سلمة».

ودعاء برفع الدرجة في الجنة مع المهديين:

«ارفع درجته في المهديين».

ودعاء لمن ترك من الذرية أن يحفظهم الله ويخلف راعيهم الذي رحل عنهم:

«واخلفه في عقبه في الغابرين».

ثم الدعاء للنفس وللميت بالمغفرة: «واغفر لنا وله يا رب العالمين».

وأخيرا طلب من الله تعالى أن يفسح له في

قبره وينور له فيه».

وهذا إشارة إلى أن يكون في راحة في حياته البرزخية التي انتقل إليها من دنياه.

هذه بعض آداب بينها الرسول الكريم ليلزمها المؤمن في موقف الموت ففيها الخير للميت ولمن حضره ولذريته وأهله.

الذكر وأصداء الموت

يختلف الناس في موقفهم من الموت، فمن كان مؤمنا عارفا بحقيقة الدنيا توقعه في كل لحظة ولم يكن لوقوعه في أحد من أهله أو أحبابه وقع الصدمة،

بل يكون منه الصبر والتجلد،

ويلجأ إلى ذكر الله تعالى الذي يخفف المصاب، ويبرد نار الفجيعة.

وهذا ما علمنا إياه القرآن الكريم في بيان موقف المؤمنين من المصائب بقوله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦- ١٥٧].

وكذلك علمنا النبي عليه وآله الصلاة والسلام أن نواجه المصائب بالصبر والدعاء والاحتساب،

ومن ذلك ما روى مسلم عن أم المؤمنين أم

سلمة رضي الله عنها قالت): سمعت رسول الله ﷺ يقول: « ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيرا منها إلا أجره الله في مصيبته وأخلف له خيرا منها».

قالت أم سلمة: فلما توفي أبو سلمة قلت كما أمرني رسول الله ﷺ فأخلف الله تعالى لي خيرا منه: (رسول الله ﷺ).

إن من المصائب ما ينال من نفس الإنسان أو ماله أو أهله، وهو في كل ذلك يعلم أنه مبتلى مختبر ليرى ربه سبحانه ما يكون منه من صبر أو جزع، قال الله تعالى:

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٦].

فالمؤمن إن أصابته مصيبة تذكر أنه وما يملك وما عنده من النعم من الله: خلقا وملكا وتدبيرا فالله قد خلقه،

وما لديه من المال هو من فضل الله تعالى

وكرمه،
وهنا يتجلى لنا ذلك الذكر القرآني الجليل الجميل:

﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ .

هذا الذكر الذي بينت الآية أنه ملجأ المؤمن عند المصائب ليدرك الحقيقة وتهون عليه المصيبة.

والذي أرشد النبي ﷺ المسلم إلى التحصن به في مواجهة المصائب، وبعد تلقي الصدمة والصبر عليها يأتي النظر إلى ما بعدها وهو: طلب أن تكون عاقبتها خيرا، وأن يكون ما بعدها عوضا عنها: «اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيرا منها».

ونجد في رواية الحديث تجربة شخصية عملية لراويته وهي أم سلمة التي قالت ما طلب النبي ﷺ أن يقوله في مواجهة المصائب، فلما مات زوجها أبو سلمة رضي الله عنه، دعت بتلك الدعوة فأخلفها الله تعالى زوجا خيرا من زوجها وهو رسول الله ﷺ ونالت شرف أن تكون واحدة من أمهات المؤمنين رضي الله عنهن.

ومن الأذكار التي علمنا إياها الرسول الكريم

ﷺ في مواجهة مصيبة الموت ما رواه الترمذي وغيره عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا مات ولد العبد قال الله تعالى لملائكته: قبضتم ولد عبدي؟

فيقولون: نعم،

فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده؟

فيقولون: نعم

فيقول: فماذا قال عبدي؟

فيقولون: حمدك واسترجع،

فيقول الله تعالى: ابنوا لعبدي بيتا في الجنة وسموه بيت الحمد،»

هذا الحديث يكشف عن صدى المصيبة التي تصيب الإنسان وموقفه منها، لدى ربه سبحانه وتعالى،

والله تعالى لا يخفى عليه شيء في ألأرض ولا في السماء، ولكنه أوكل لعباده من الملائكة متابعة شؤون بني آدم، وكتابة أحوالهم ورفع الأعمال إليه سبحانه.

وهذا الحوار الجميل الذي يدور بين الله تعالى وملائكته فيه تجليات اسمه الله الرحيم الذي يعلم آثار الموت في نفوس الناس ويعدّ للصابرين

أجرا عظيما، هو هنا بيت في الجنة تبنيه الملائكة للصابرين من المؤمنين.

إن الإنسان حين يدرك عاقبة أي أمر يقف طويلا عنده فعلا أو تركا، لأنه إن كان عاقلا أقدم على ما فيه خيره وترك ما يكون وبالا عليه،

وفي الحديثين اللذين وقفنا عليهما خير كثير يرينا أن للمصائب وجها آخر غير الحزن والألم.

الصلاة على الراحلين

الموت حق لا يماري فيه مؤمن ولا كافر، والموت انتقال من هذه الدنيا التي خلقنا الله تعالى فيها لنرى آياته و تجليات أسمائه الحسنى، ونعبده كما أمر وأراد.

والميت الراحل عن هذه الحياة بحاجة إلى أن يحسن أهله ومحبوه وداعه وهو يمضي راحلا عن الحياة،

وخير وداع الصلاة عليه والدعاء له ليكون ذلك الوداع زادا له في رحلته وليبقى في ذاكرته نورا دائما.

ووداع الميت الراحل عن الحياة بالصلاة يستحق وقفة تأمل، والملاحظ أن الدعاء يغلب على صلاة الجنازة فيأخذ نصفها بعد الفاتحة والصلاة الإبراهيمية.

ومن أذكار صلاة الجنازة بعد التكبيرة الثالثة ما رواه مسلم عن عوف بن مالك رضي الله عنه، قال: صلى رسول الله ﷺ على جنازة فحفظت من دعائه وهو يقول:

«اللهم اغفر له وارحمه،

وعافه واعف عنه،
وأكرم نزله، ووسع مدخله،
واغسله بالماء والثلج والبرد،
ونقه من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس، وأبدله دارا خيرا من داره، وأهلا خيرا من أهله، وزوجا خيرا من زوجه،
وأدخله الجنة، وأعذه من عذاب القبر، ومن عذاب النار».
حتى تمنيت أن أكونه أنا ذلك الميت،
وفي رواية أخرى لمسلم: «وقه فتنة القبر وعذاب القبر».
إن الإنسان حين يموت تفارق روحه جسده، وتتعطل حواسه، وينتقل من عالم الدنيا إلى عالم البرزخ،
وللموت صورتان في الانتقال: صورة الجسد الذي نشيعه إلى القبر، والذي يصيبه البلى كما هو معلوم مشاهد.
وصورة الروح التي لا نراها، لكن لها وجودا هو الوجود الحقيقي للإنسان،
هذه الروح التي هي بحاجة إلى الصلاة والدعاء،

ولننظر في تفصيلات هذا الدعاء النبوي الذي دعا به على من صلى عليه وعلمنا أن ندعو به لموتانا،

لنرى ما يحتاج إليه الميت في هذه الحال، حال الرحيل نحو العالم الجديد للروح

ولنرى صورة هذا العالم الذي ينتقل إليه:

«اللهم اغفر له وارحمه»: والمغفرة تعني ستر الذنوب والتجاوز عن العيوب، ومن ثمرات المغفرة الرحمة التي فيها تجلي النعمة، فمن غفر الله تعالى له تجلى عليه برحمته وألوان إنعامه.

وعافه واعف عنه: والعافية تعني السلامة: السلامة من آثار الانتقال من الدنيا إلى البرزخ،

فهي رحلة، وللرحلة متاعب وفيها عقبات،

ومع العافية العفو، وفيه تجاوز عن التقصير، وتفضل بألوان الرحمة الربانية.

وأكرم نزله: والنزل ما يقدم للضيف من الطعام،

وفي هذا الدعاء طلب بإكرام الميت في انتقاله من الدنيا إلى البرزخ،

وهذا يعني أنه بحاجة إلى ما يتزود به في عالمه الجديد

ووسع مدخله: والمدخل الباب الذي يلج منه الإنسان إلى مكان جديد، فإذا كان ضيقا كان في الضيق أذى،

وإذا كان فيه سعة كان فيه راحة،

وهذا ما نطلبه للميت: سعة المدخل والراحة في الانتقال.

واغسله بالماء والثلج والبرد: والغسل هنا ليس للجسد، فقد تم ذلك له قبل الصلاة عليه، بل الغسل للنفس التي لا نراها والتي انتقلت من عالم إلى عالم مما يوحي أنها بحاجة إلى تبريد يخفف من حرارة الانتقال

والغسل المطلوب للنفس يتم بثلاثة أشكال للماء: الماء سائلا، والماء متجمدا في صورتين: الثلج والبرد، وفيهما برودة تخترق السطح وتصيب الأعماق بطهارتها وأثرها، ولعل من آثار هذا الغسل:

ونقه من خطاياه كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس: فهو ليس غسلا من درن وأوساخ عادية بل هي الخطايا التي تلوث النفس وتشوه نقاءها، لتكون بعد الغسل في أنظف صورة تتجلى وهي صورة الثوب الأبيض الناصع النقي.

وأبدله دارا خيرا من داره، وأهلا خيرا من أهله، وزوجا خيرا من زوجه: إن الميت لا ينتقل من دنيا عامرة إلى فراغ، بل ها هو الدعاء النبوي يعلمنا أن ندعو له ليكون انتقاله إلى حال أحسن مما كان عليه وتركه،

فقد كانت له في الدنيا دار، فندعو له أن ينتقل بالموت إلى دار خير منها،

وكان له أهل يأنس بهم، وندعو له أن يكون له بعد الموت أهل خير ممن ترك، وكانت له زوجة فندعو له أن ينال بعد الموت زوجة خيرا منها من الحور العين،

ومجمل الصورة التي يرسمها الدعاء للعالم الجديد للمؤمن تبدد الوحشة التي يوحي بها القبر و ما يصيب الجسد من أحوال فيه.

وأدخله الجنة وأعذه من عذاب القبر وعذاب النار: وللمؤمن دخول للجنة قبل القيامة فقد أخبرنا النبي الكريم ﷺ أن نسمة المؤمن طائر يأكل من ثمار الجنة ويشرب من أنهارها،

وهو دخول غير كامل كالذي يتحقق بعد البعث ولقاء الروح بالجسد من جديد ليكون تمتعها بما في الجنة من النعيم في أكمل صورة.

ومع الدعاء بدخول الجنة دعاء بالنجاة من أحوال الانتقال من الدنيا إلى البرزخ وما يلاقيه غير المؤمن من أحوال سميت: عذاب القبر، ودعاء بالنجاة من عذاب النار العارض في عالم البرزخ والدائم بعد البعث.

دعاء للميت وللأحياء

تعددت الأدعية والأذكار الواردة عن نبينا محمد ﷺ في صلاة الجنازة، وكلها خير يطلب للميت أو للأحياء.

ومن تلك الأدعية هذا الدعاء الذي رواه أبو داود وابن ماجه عن وائلة بن الأسقع رضي الله عنه قال: صلى بنا رسول الله ﷺ على رجل من المسلمين فسمعته يقول: «اللهم إن (فلان بن فلان) في ذمتك وحبل جوارك، فقه من فتنة القبر وعذاب النار، وأنت أهل الوفاء والحمد، فاغفر له وارحمه، إنك أنت الغفور الرحيم».

لقد تعددت الأذكار النبوية في صلاة الجنازة، وليس من الضروري أن تقال جميعها في صلاة واحدة، بل يتخير المصلي منها ما تيسر له، وما تيسر حفظه،

ومنها هذا الدعاء الذي فيه نص على اسم الميت،

فها هم المصلون قد أقبلوا على الله تعالى في صلاة الجنازة بإخلاص في الدعاء ورجاء بالقبول،

وهاهم يضعون الراحل عنهم بين يدي ربه،

يشفعون له، ولا حول له ولا لهم ولا قوة،

وهو أحوج ما يكون إلى رحمة ربه، وأن ينال في رحلته إلى العالم الجديد الأمن والرعاية والحماية،

ومن غير الله تعالى يقيه ويجيره من مخاطر ما هو مقبل عليه؟

وهذا ما يبدأ به الدعاء:

(اللهم إن فلان بن فلان في ذمتك وحبل جوارك): ومن كان في ذمة الله وعهده نال الأمن وسلم من كل سوء، وأول مخاطر هذه الرحلة فتنة القبر، أي الأسئلة التي يتعرض لها الراحل وهو يدخل بوابة البرزخ: (من ربك؟ وما دينك؟ وما كتابك؟ ومن هذا الرجل الذي ظهر فيكم؟).

فالمؤمن الذي عاش على ذكر الله تعالى يلقن حجته، وينطق بالإجابة من غير تلعثم ولا تردد، وبذلك يوقى من فتنة القبر وينجو من عذابه،

ومن نجا منهما نجا بإذن الله من عذاب النار، وفي هذا الدعاء تعظيم لله تعالى بذكر بعض صفاته التي يستدر بها الداعي الرحمة للميت فيقول مخاطبا ربه سبحانه: (وأنت أهل الوفا والحمد).

والله تعالى قد وعد عباده المؤمنين بالتثبيت في الحياة الدنيا وعند الموت وفي الآخرة،

والنجاة من كل سوء، والميت الذي ندعو له أحوج ما يكون إلى النجاة من عذاب القبر وعذاب النار، وقد خرج من دنياه وحيدا ليكون في ذمة الله تعالى وجواره، وحفظه ورعايته ورحمته.

ولذلك جاء في ختام هذا الدعاء:

(اللهم فاغفر له) بستر عيوبه والتجاوز عن ذنوبه، (وارحمه) بتجليات رحمتك التي ينجو بها من العذاب، وينال الإكرام (إنك أنت الغفور الرحيم).

وكما يدعو المصلون للميت فإنهم كذلك بحاجة لأن يدعوا لأنفسهم، لأن كل واحد لا محالة صائر إلى ما صار إليه.

وقد جاءت أدعية نبوية في صلاة الجنازة يدعو فيها المصلون لأنفسهم في ما يدعونه ومنه ما رواه أبو داود والترمذي والبيهقي وابن ماجه عن أبي هريرة ﵁ قال: كان رسول الله ﷺ إذا صلى على جنازة يقول: (اللهم اغفر لحينا وميتنا وشاهدنا وغائبنا وصغيرنا وكبيرنا وذكرنا وأنثانا، اللهم من أحييته منا فأحيه على الإسلام ومن توفيته منا فتوفه على الأيمان، اللهم لا تحرمنا أجره ولا تضلنا بعده).

إن في هذا الدعاء شمولا للأحياء والأموات، والحاضرين للجنازة والغائبين عنها من

المؤمنين، وللصغير والكبير والذكر والأنثى،

هذا الشمول في الدعاء ينبهنا إلى أنه ما من أحد يستغني عن طلب المغفرة التي تعني ستر العيوب ومغفرة الذنوب والتجلي بالرحمة،

وفي هذا الدعاء شمول للحياة والموت،

والحياة المطلوبة أن تكون على الإسلام بشرائعه وأركانه ليكون المسلم ملتزما ما أمره ربه سبحانه

ولا معنى للالتزام الظاهري إن لم يكن له رصيد من الإيمان الذي تنكشف حقيقته عند الموت حيث لا عمل بل ظهور لأساس العمل،

وما أجمله من دعاء موجز واف يختم به هذا الدعاء الشامل: (اللهم لا تحرمنا أجره ولا تفتنا بعده)

حيث ينال المصلي على الجنازة أجرا عظيما، ويطلب الثبات على الحق والنجاة من فتن الدنيا والاستقامة حتى يلقى الله تعالى.



الخاتمة

أمّا بعد،

فإن حديث الموت أكبر من أن يستوعبه كتاب صغير فضلاً عن أن تحيط به مجلدات، ولكنها صفحات أرجو أن تشرق بها القلوب، وتستنير بها العقول، وتنضبط بها الحياة، ليكون الموت راحة من العناء، وانتقالاً إلى خير مما تتركه في دنيا الفناء.

ووراء ما قلت وأوردت من النصوص القرآنية والنبوية، نصوص كثيرة، وما أردت الاستيعاب، بل أردت أن أضيء شمعة في ظلمات الوهم، وقبساً في غبش الفهم،

وأسأل الله تعالى أن يكتب لهذا العمل القبول عنده، والرواج بين الناس ليكون من العلم الذي ينفع الناس وأنتفع به بعد الرحيل عن هذه الدنيا.



الفهرس